(ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا)

الحرية والمسؤولية في الفكر والواقع

عبد الرحمن السالمي

تتأسس مسألة الحرية في الإسلام على الوحدانية وبمقتضى الإيمان العميق بذلك يتولد لدى المرء الوعي بأنه حُرٌّ، وتكون حريته من العمق بقدر عمق إيمانه. ولتقريب الأمر إلى الأذهان جاءت الآية الكريمة: (ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فيهِ شُرَكَاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَماً لرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) والتي أقامت فلسفة كاملة للحرية الإنسانية: من العلاقة بالله –عز وجل- وإلى علاقة الإنسان بالعالم الذي يحيا فيه، والمجتمع الذي يعيش داخل أطره. يقول المسلم في الحج: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك" فالمسلم يتوحد في العلاقة المباشرة به –سبحانه- إيماناً واعتقاداً وتوحيداً لا مثنوية فيه، واستناداً إلى ذلك تعمل حريته في كل العلائق الأخرى التي يضطر بل يختار أن يتعامل معها. وهكذا فالحرية الأصيلة هي حرية داخلية وتتاغم بين المشاعر والإحساسات. وما دام الإنسان في تلك المشاعر الإيمانية العميقة يملك ولاءً واحداً وهمًّا واحداً؛ فإن وجوه الحياة الأخرى الخاصة والعامة تصبح اختيارات بحتة فردية وجماعية، وهذا هو المعنى الحقيقي لإنسانية الإنسان، والقائم على الاختيار الحرِّ والمسؤول.

لقد لاحظ الأنثروبولوجي الفرنسي مارسيل نموشيه التشابه بل الترادف في اللغة العربية وبعض اللغات الأخرى بين مفرد(دين) بمعنى الاعتقاد، ومفرد(دَين) بمعنى أن يكون لآخر التزام عليك، فالدِّين هو الالتزام الحُرّ للمرءِ بوحدانيته –سبحانه-، أو أنه دَينُ الله –سبحانه- على الإنسان وفي مقابل ذلك أو بالتفرع عليه يكون ذاك التعاقد الضمني: عبادة الله –سبحانه- أو العبودية له، والحرية تجاه كل الآخرين، ولذلك فإن الشرك إنما هو شلٌّ لإمكانيات الحرية الكبرى في الحياة الإنسانية، والتي تتناول العقل والإرادة بعد توزُّع الولاء، وتوزُّع الكفر، وتوزع العمل.

وقد رأى بعض علماء الكلام المسلمين أنه لا معنى للمناقشات الطويلة في حرية الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله إن لم تتأسس على التوحيد وإفراده –سبحانه- بالعبادة. فإذا حدث خلل في العبودية لله، داخل الخلل حياة الإنسان كلها، ولم يعد هناك معناً للجدال الكبير في حدود حرية الفرد تجاه مجتمعه أو حاكمه أو سياقات حياته الاجتماعية أو الأسرية.

وإذا كان ذلك هو المعنى الحقيقي والكبير للحرية الإنسانية (إفراد الله –سبحانه- بالعبادة والعبودية) فإن الإنسان ينصرف ليتدبَّرَ في اختياراتِ حُرَّةٍ تنظيم حياته الخاصة،

ومسؤولياته العامة. ولذلك يستحيل أذا استوت علاقة المخلوق بخالقه، أن يتسلل الخَلل إلى علائق الإنسان الأخرى، وهذا هو معنى أن الحرية لا تتجزأ، كما أن الإنسان الحُرَّ هنا يمكن أن يكون تابعاً أو عبداً هناك. بيدأ أن المساومة على مشاعر الناس وانتهاك خصوصياتهم وجرح معتقداتهم بمبدأ الحرية هو انتهاك لهذا المبدأ وتضليل له ومؤاده الغواية والإضلال، وكان تمادياً نحو العنف والبطش وهو استلابٌ للحرية المهداة من الربِ (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)، وكان نهياً إلهياً: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ) وتغليب الحرية المدنية على الحرية الدينية.

فعبد الرحمن الكواكبي في كتابه:"طبائع الاستبداد" ومبالغة منه في إيضاح أبعاد الحرية ومسؤولياتها، جعل الأمر معكوساً فقد قال: إن الاستبداد يفسدُ العقل والمروءة، بل والدِّين. وقد عنى بذلك أن التفرد وسياساته يدفع المرء إلى تصرفاتٍ ويولدُ لديهِ عادات وأخلاقاً وأعرافاً قد تفسد علاقته بخالقه، إذ تحدث تنازعات في الولاء تَشُلُ القُدرة على التحكم في مجرى الحياة، وفي اختيارات التصرف، وإذا اضطر الإنسان للتضحيةِ بحرياته الصغيرة من أجل البقاء فقد دون أن يشعر الإيمان بأنه -عز وجل- وحدهُ هو النافع والضار، وله الخلق والأمر.

إن الإيمان العميق به -عز وجل- وحده هو أساس الحرية تجاه كل الآخرين، وهو الأساس لإسقاط كل تبعية، وفي مدارج ذلك يصبح واضحاً أن الإيمان مسؤولية والتزام، وليس كما يزعم الماديون والطبيعيون قيداً على حرية المرء في التفكير والتصرف وهو ما نقل تصرف الحرية المدنية بدون ضابطها الديني والأخلاقي إلى التحكم بالقيم الإنسانية، وهذا الانفلات جعل منه مصدرا للتخويف والرعب والتصادم ليس بين المجتمعات المتعددة بل حتى في المجتمع الواحد.

يُقبل المؤمن على تنظيم حياته بعقلهِ وإرادتهِ الحُرَّة، فيمارسُ بكل ثقةٍ عيش اختياراته في السياقات المختلفة التي يحياها، وبذلك تصبحُ الحياةُ الأسرية شورى ومسؤولية وكذلك الحياة الاجتماعية والسياسية. وإذا ما أنكرنا حرية الإنسان ننكر أيضاً وحتماً إنسانيته وحقوقه الأساسية، ولا سيما أول الحقوق كلها، الحق في الحياة. فالإرادة العادلة هي المنهج المبتغى من الحرية، كان ابن عاشور محقاً في جعله مقصداً سادساً من مقاصد الشريعة ولذا كانت الحرية أحد عناصر التكليف الإنساني وقرينة العقل، فلا تقوم للإنسان ماهية الوجود بدونها. وكما أن العقل هو محرك التفكير والإبداع فإن الحرية محرك الإدارة البشرية وبهما تكتمل إنسانية الإنسان ووجوده.

تخوض البشرية جمعاء اليوم تجربة التنمية والتطوير من أجل السلام والتسامح والعدالة، وكل الإعاقات الحاصلة نتيجة الظلم والحروب والمجاعات إنما هي مظاهر للاختلال في فهم الحرية وممارساتها. فهناك من جهة الجبروت الاقتصادي والسياسي الذي يريد إلغاء الألوهية لكي يتفرد باستعباد البشر. وهناك من جهة ثانية الجبروت الفكري الذي يريد

استغلال المشكلات ليعيق التحرر الإنساني، وهناك من جهة ثالثة وجوه استغلال الضعف البشري لغرض التبعية وإلغاء الحقوق، والدفع لاحتقار الواجبات. وإلى ذلك كله نبه القرآن الكريم عندما قال: (وهديناه النجدين، فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة، فك رقة، أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيماً ذا مقربة) فالنجدان، نجدا الخير والشر يقتضيان - وبالاختيار الكبير- إجتراح إرادة النهوض والتحرر(العقبة) باتجاه تحرير البشر، ومكافحة العوز والحاجة، ورعاية الضعفاء لكي يصبحوا أقوياء وأحراراً.

بالوحدانية إذن تبدأ الحرية. وبالحرية في الحياة الإنسانية يصبح الكفاح ضد العبوديات لجهات الفقر والحاجة ولجهات التضامن والمسؤولية (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) صدق الله العظيم.